# التأويل الباطني وآثاره على انحراف الشيعة عن الحق

**الباحث/ عبدالعزيز بن مسلّم بن عبدالعزيز المسلّم**
**طالب دكتوراه في قسم الدراسات الإسلامية**
**مسار عقيدة - بكلية التربية جامعة الملك سعود**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**المقدمة:**

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لقد أرسل الله تعالى نبيه محمداﷺ بالهدى، وأنزل معه الكتاب والحكمة بشيراً بهما ونذيراً، وداعياً إلى الله تعالى بإذنه وسراجاً منيراً، قال جل وعلا: M + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 L [ الأحزاب:٤٥-٤٦]، فأدىﷺالأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة وجاهد في الله تعالى حق جهاده حتى أتاه اليقين، فلم يلحق بالرفيق الأعلى إلا وقد كمُل الدين، وتمت النعمة، كما قال تعالى:M K L M N O P Q R S T U L [ المائدة:٣]، وجعل الله تعالى في اتباعه طريق العز والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، والفوز المبين يوم الدين، والذُل والخزي والعقاب الأليم لمن خالف أمره وكفر به، وابتدع في دينه ما ليس منه.

ولما كان إيمان العبد لا يتم إلا بالإيمان بالوحيين، والتعظيم لهما، والتسليم والانقياد لهما ، فقد حرص الشارع الحكيم على ترسيخ ذلك، والتأكيد عليه في كثير من آيات الكتاب العزيز كما في قوله تعالى: M ^ _ ` a b c d e f g h i L k l m n [ الحجرات:١]، ودعا النبي ﷺ أمته إلى التمسك بالكتاب والسنة في مواضع كثيرة من سنته ومن ذلك قولهﷺ:( وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه

الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به) [١]، وقوله:( فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة) [٢] وأمر ﷺ بالحق المتمثل في الوحيين، ودعا إلى الاجتماع عليه، ونهى عن الفُرقة والاختلاف في الدين، وحذر منها وأخبر عن وقوع الاختلاف والافتراق في أمته فقال ﷺ:( افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال الجماعة)[٣].

وقد وفق الله تعالى سلف هذه الأمة الصالح من الصحابة-رضي الله عنهم- والتابعين لهم بإحسان إلى الاعتصام بكتابه العزيز وبسنة رسوله ﷺ، فكان من أصولهم المتفق عليها أنه لا يُقبل من أحد أن يُعارض القرآن والسنة لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده، حتى نبغت نوابغ من أهل الأهواء والبدع ممن تنكبوا الصراط المستقيم، واعرضوا عن كتاب ربهم، وسنة نبيهم ﷺ، واخترعوا أصولاً تُخالفهما فحصل لهم بذلك الزيغ والضلال عن الحق.

فالافتراق في هذه الأمة مشاهد معلوم في كل باب، ومن ذلك ما حصل من افتراق المبتدعة في مسائل الاعتقاد كالإيمان بالله تعالى، وأسمائه، وصفاته، والقدر وغير ذلك من المسائل، وكان لهذا الافتراق عدة أسباب أبرزها: إعراض كثير من هذه الفِرق عن الكتاب والسنة، واختراعهم أصولاً بنوا عليها مذاهبهم في عدد من مسائل الاعتقاد، فما رأوا أنه يوافقها من الكتاب أو السنة احتجوا به اعتضاداً لا اعتماداً، وما خالفها منهما ردوه أو تأولوه فضلوا وأضلوا، قال ابن تيمية[٤]-رحمه

(١)صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة-رضي الله عنهم-، باب: من فضائل علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-، حديث رقم:٢٤٠٨.

(٢)سنن أبي داود، كتاب: السنة، باب: النهي عن الجدال في القرآن، حديث رقم:٤٦٠٧، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ج٣،ص١١٨ــــــ١١٩.

(٣) سنن الترمذي، أبواب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث رقم: ٢٦٤٠، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي،ج٣،ص٥٣.

(٤) شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني الحنبلي، ولد بحران سنة٦٦١هـ، له مصنفات كثيرة منها: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، والفتوى الحموية وغيرهما، توفي في سجنه في القلعة سنة ٧٢٨هـ، شذرات الذهب،ج٨،ص١٤٢ــــــ١٤٩.

الله- واصفاً الأصول التي اخترعها المبتدعة بعد إعراضهم عن الوحيين:" وأصلوا أصولاً تُناقض الحق رأوا أنها تناقض ما جاء به الرسول ﷺ فقدموها على ما جاء به الرسول ﷺ"(١).

وقال-رحمه الله- مخبراً عن حال المبتدعة في إعراضهم عن الحق القائم على الوحيين:" عُمدتهم في الباطن ليست على القرآن والإيمان، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم، عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول ﷺ وغير ذلك"(٢).

ولما كان لأصول المبتدعة التي اخترعوها أثراً كبيراً في انحرافهم عن الحق في كثير من مسائل الاعتقاد بدا لي في هذا البحث أن أقف مع أصل كان له أثر كبير في ضلال بعض الفِرق المبتدعة عن الحق وهو التأويل الباطني، والذي اعتمد عليه الشيعة (٣) أصلاً بنوا عليه كثيراً من اعتقاداتهم، ومن أبرز فِرقها الإمامية(٤) والإسماعيلية(٥)

(١) مجموع الفتاوى، ج١٦،ص٤٤٠.

(٢) المرجع السابق، ج٣،ص٥٨.

(٣) الشيعة: هم الذين شايعوا علي بن أبي طالب-رضي الله عنه- على الخصوص، وقالوا بإمامته نصاً ووصيةً واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده، وقالوا: الإمامة ركن الدين الأعظم، وأن الأئمة معصومون من الكبائر والصغائر وهم فِرق كثيرة منها الغالي ومنهم دون ذلك، ومن أسمائهم الرافضة، انظر: الملل والنحل ج١،ص١٤٦ــــــ١٤٧.

(٤) الإمامية: هي إحدى فِرق الشيعة، القائلون بإمامة علي بن أبي طالب-رضي الله عنه- بعد النبيﷺ نصاً ظاهراً وقد عيّن ﷺ علياً في مواضع تعريضاً وفي أخرى تصريحاً، كما ادعوا الإمامة في بعض ولده نصاً وادعوا لهم العصمة، وغلوا فيهم، وادعوا رجعتهم إلى الحياة الدنيا قبل يوم القيامة، واختصاصهم بتأويل القرآن دون غيرهم، وقد وقعوا في الصحابة-رضي الله عنهم-، ولم يثبتوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين وعلي بن الحسين على رأي واحد، وانحرفوا عن الحق في كثير من مسائل الاعتقاد، انظر: الملل والنحل ج١،ص١٦٣ــــ١٦٥، الفصل في الملل، ج٢،ص٢ــــــ٥ الفرق بين الفِرق، ص٤١ــــــ٤٥.

(٥) الإسماعيلية: فرقة من فِرق الشيعة الباطنية، وهي من فِرق الغلاة، ويلتقون مع الإمامية في النشأة والقول بإمامة عدد من الأئمة إلى الإمام السابع من الإثني عشر من ذرية علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-، ويُسَمون الواقفية، وينتسبون إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، ومن مقولاتهم: أن الأرض لا تخلوا قط من إمام حي قائم إما ظاهر مكشوف، وإما باطن مستور، وأن علياً-رضي الله عنه- تلقى علم الباطن عن الرسول ﷺ حتى انتهى هذا العلم إلى محمد بن إسماعيل الذي ينتسبون إليه، وغلوا في أئمتهم، وادعوا لهم العصمة، ولهم مقولات تتضمن تعطيل الشريعة وسقوط التكاليف، وانحرفوا في كثير من مسائل الاعتقاد عن الحق بسبب اعتمادهم على التأويل الباطني انظر: الملل والنحل ج١،ص١٧٠ــــــ١٧٦، التبصير في الدين، ص٣٨.

الباطنية[1] مبيناً لهذا الأصل وآثاره على انحراف هاتين الفِرقتين ومن سلك سبيلهما عن الحق في مسائل الاعتقاد.

**ـ خطة البحث:**

يشتمل البحث على مقدمة وثمان مباحث كما يلي:

ـ المقدمة.

ـ المبحث الأول: معنى التأويل في اللغة والاصطلاح.

ـ المبحث الثاني: معنى التأويل الباطني في اللغة والاصطلاح.

ـ المبحث الثالث: نشأة التأويل الباطني.

ـ المبحث الرابع: وسائل التأويل الباطني لدى الشيعة الإمامية الإثني عشرية .

ـ المبحث الخامس: مظاهر التأويل الباطني لدى الشيعة الإمامية الإثني عشرية.

ـ المبحث السادس: وسائل التأويل الباطني لدى الشيعة الإسماعيلية.

ـ المبحث السابع: مظاهر التأويل الباطني لدى الشيعة الإسماعيلية.

ـ المبحث الثامن: حكم أهل السنة والجماعة على التأويل الباطني.

ـ الخاتمة.

**إجراءات البحث:**

١ـــ أُعرّف بالفِرق التي سترد في ثنايا البحث عند أول ورود لها في الحاشية بشيء من الاختصار.

٢ـــ أُعرّف بالأعلام الذين يرد ذكرهم في البحث تعريفاً مختصراً عدا المشهورين منهم وهم: الأنبياء-عليهم الصلاة والسلام-، والصحابة-رضي الله عنهم-، والأئمة الأربعة-رحمهم الله-.

(١) الباطنية: وصف يُطلق على مجموعة من الفِرق، وسُمو بذلك ؛ لأنهم زعموا أن لنصوص الشريعة ظاهراً وباطناً، وزعموا أن العامة هم المرادون بظواهر النصوص، وهم المعنيون ببواطنها، ولهذا اتخذوا من هذه الدعوى وسيلة للتأويل الباطني الذي راموا من خلاله إسقاط التكاليف عنهم، فمن ارتقى إلى علم الباطن فقد انحطت عنه التكاليف، وغرضهم من ذلك إبطال الشرائع ، ونفي المعاد والجنة والنار، وهم فِرق شتى يجمعهم التأويل الباطني لنصوص الشرع والانحراف عن الحق في كثير من مسائل الاعتقاد انظر: الفرق بين الفرق، ص٢٩٤ وفضائح الباطنية، ص٤٦.

٣ـــــــ استخدام هذا النوع من الأقواس: ﴿ ﴾ للآيات القرآنية، وهذا النوع من الأقواس: ( ) للأحاديث النبوية وهذا النوع من الأقواس:" " لأقوال العلماء وغيرهم ممن يتم إيراد قوله في ثنايا البحث.

٤ـــــــ الالتزام بالمنهج العلمي والفني المعتمد في البحوث العلمية من خلال ما يلي:

- عزو الآيات القرآنية، بذكر اسم السورة ورقم الآية في الأصل بعد ذكر الآية لا في الحاشية.
- تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية، فإن كان في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو لواحد منها، وإن كان في غيرهما اكتفي بتخريجه من أحد كتب السنة المعتبرة.
- وضع فهرس لمصادر ومراجع البحث.

**المبحث الأول: معنى التأويل في اللغة، والاصطلاح:**

**المطلب الأول: معنى التأويل في اللغة:**

قال ابن فارس(١)-رحمه الله-:" التأويل مصدر من باب التفعيل، وأصله أوْل، فالهمزة والواو واللام أصلان هما: ابتداء الأمر وانتهاؤه، فالأوّل: مبتدأ الشيء، والمؤنثة: الأولى، مثل: أفعل، وفُعلى، وتأسيس بناء"أوّل": همزة وواو ولام وهو القول، وقيل تأسيسه: من واوين بعدهما لام"(٢).

قال الطبري(٣)-رحمه الله-:" وأما معنى التأويل في كلام العرب فإنه التفسير"(٤)، فمن معاني التأويل: التفسير، ويُسمى حقيقة الشيء المخبر به تأويلاً؛ لأن الأمر ينتهي إليه، ومنه قوله تعالى: M , - . / 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = L [الأعراف: ٥٣].

**المطلب الثاني: معنى التأويل في الاصطلاح:**

يُطلق لفظ التأويل في اصطلاح السلف على معنيين مرجعهما: الكتاب، والسنة، واللغة، وهما:

**أولاً/تفسير اللفظ وبيان معناه:** وهذا كثير في استعمالات السلف الصالح من الصحابة- رضي الله عنهم- والتابعين، ومن بعدهم أهل القرون المفضلة، جاء في حديث جابر – رضي الله عنه- في وصف الحج قوله:( ورسول اللهﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به)(٥) يعني تفسيره وبيانه بأقواله وأفعالهﷺ.

**ثانياً/ الحقيقة التي يؤول إليها الكلام:** ومعنى ذلك وقوع المخبر به في وقته الخاص إذا كان الكلام خبراً أو امتثال ما دل عليه الكلام وإيقاع مطلوبه إذا كان الكلام طلباً،

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسن، أصله من قزوين، إمام في اللغة له تصانيف منها: المجمل، ومعجم مقاييس اللغة وغيرهما، توفي سنة٣٩٩هـ، انظر: الأعلام، ج١،ص١٩٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ج١،ص١٦٠.

(٣) الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، له تصانيف كثيرة منها: جامع البيان عن تأويل آي القرآن توفي سنة ٣١٠هـ، انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٤،ص٢٦٦ــــــــــــ٢٦٩.

(٤) جامع البيان، ج٣،ص١٨٤.

(٥) صحيح مسلم، كتاب: الحج، باب: حجة النبيﷺ، حديث رقم:١٢١٨.

وهو معنى يرجع إلى العاقبة والمصير[١]، ومنه قول عائشة -رضي الله عنها-:(كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك يتأول القرآن)[٢]، فهذا التأويل هو نفس فعل المأمور به، وهو المقصود في كلام الله ورسوله ﷺ[٣]، فالتأويل هنا حقيقة ما أُمِر به ﷺ في قوله تعالى: Q P O M L [النصر: ٣]، قال ابن القيم[٤] -رحمه الله- في بيان حقيقة التأويل في كلام الله تعالى:"التأويل في كتاب الله سبحانه وتعالى المراد به حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ إليه، وهي الحقيقة الموجودة في الخارج فإن الكلام نوعان: خبر وطلب، فتأويل الخبر هو الحقيقة وتأويل الوعد والوعيد هو نفس الموعُود والمتوعد، به فتأويل ما أخبر الله تعالى به من صفاته وأفعاله: هو نفس ما هو عليه سبحانه وما هو موصُوف به من الصفات العُلى، وتأويل الأمر: هو نفس الأفعال المأمور بها"[٥].

وبهذا يتبين أن معنى التأويل عند السلف إما أن يكون المراد به تفسير اللفظ وبيان معناه، أو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، وهذا التأويل هو الموافق للقرآن والسنة ولغة العرب، وهو التأويل الصحيح.

**المبحث الثاني: معنى التأويل الباطني في اللغة والاصطلاح:**

**المطلب الأول: معنى التأويل الباطني في اللغة:**

**معنى الباطن في اللغة:** الباء والطاء والنون أصل واحد لا يكاد يُخلف وهو إنسي الشيء والمقبل منه، فالبطن خلاف الظهر، تقول: بطنت الرجل إذا ضربت ظهره، وباطن الأمر دُخلته خلاف ظاهره، ومن هذا الباب قولهم لدُخلاء الرجل الذين يبطنون أمره: هم بطانته، وتقول: بطنت هذا الأمر، إذا عرفت باطنه والله تعالى هو الباطن؛ لأنه بَطَن الأشياء خبراً[٦].

---

(١) انظر: الحموية،ص٣٥.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الصلاة، باب: ما يُقال في الركوع والسجود، حديث رقم:٢١٧.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة،ج١،ص١٧٧.

(٤) الإمام أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الفقيه الحنبلي، ولد سنة٦٩١هـ، له مصنفات كثيرة منها: طريق الهجرتين وباب السعادتين، توفي سنة٧٥١هـ، انظر: شذرات الذهب ج٨،ص٢٨٧ــــــ٢٩١.

(٥) الصواعق المرسلة، ج١،ص١٧٧ .

(٦)انظر: معجم مقاييس اللغة، ج١، ص٢٥٩ــــــ٢٦٠، وسبق بيان التأويل في اللغة في المطلب الأول من المبحث الأول.

**المطلب الثاني: معنى التأويل الباطني في الاصطلاح:**

**التأويل في الاصطلاح:** صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وإذا لم يكن اللفظ محتملاً للمعنى الذي حُمل عليه، ولم يبيّن المتأول الدليل الذي حمله على ذلك كان تأويلاً فاسداً بل تلاعباً بالنصوص(١)، ومنه التأويل الباطني وهو : إخراج النص من دلالته الظاهرية إلى دلالته الباطنية بطريق التأويل فالظاهر عند الباطنيين هو الصور والأمثال المضروبة، والباطن هو المعاني الخفية التي لا تتجلى إلا لأهل البرهان -كما زعموا-(٢)، يقول جعفر بن منصور اليمن(٣) في بيان معنى التأويل الباطني:" من استقرأ آيات القرآن وما ورد فيها من رموز وإشارات على ضوء العقل والواقع يتبين أن على الإنسان أن يتأمل ويرجع إلى المعنى الحقيقي للكتاب ليجد أن لكل آية منه ظاهر وباطن قد أشار إليهما سبحانه بقوله: M - . / 0 1 L[ لقمان : ٢٠] ، فالموجودات قسمين: ظاهر للعيان وهو الغلاف أو القشر، وباطن خفي هو اللب أو الجوهر، وما جاء في ظاهر آيات القرآن هي معانٍ يعرفها وينطق بها علماء الظاهر، ولكن في العرفان الإسماعيلي لكل فريضة من فرائض الدين تأويلاً باطنياً لا يعلمه إلا الأئمة، وكبار حُججهم وأبوابهم، ودعاتهم، لذا جعلوا الأئمة المرجع في تأويل الرموز"(٤).

**فتأويل الباطنية يختلف عن التأويل الصحيح بأمرين:**

**الأول:** عدم وجود دليل يقتضي صرف اللفظ عن ظاهره.

**الثاني:** عدم وجود رابط بين اللفظ والمعنى التأويلي الذي قصدوا مما يُشعِر بالتعسف والهوى في هذا النوع من التأويل.

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون، ج١،ص١٨، وسبق بيان التأويل في الاصطلاح في المطلب الثاني من المبحث الأول.

(٢)انظر: المعجم الفلسفي، ج١، ص٢٣٤.

(٣) جعفر بن منصور اليمن بن الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي يتصل نسبه إلى عقيل بن أبي طالب يحتل مكانة عظمية لدى الإسماعيلية، وبلغ مراتب الأبواب، له مصنفات عدة منها: الكشف، وتأويل الحروف وغيره، توفي سنة ٣٨٠هـ، ترجمته في مقدمة كتابه: أسرار النُطقاء، ص٧ــــــ٨.

(٤)الكشف، ص٦ــــــــ٧.

يقول الغزالي[١] مبيناً سبب إطلاق وصف الباطنية على من اعتمدوا على هذا النوع من التأويل:" إنهم لُقبوا بذلك؛ لأنهم يدّعون أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللُب من القشر"[٢].

ويقو الشهرستاني[٣] عن سبب إطلاق وصف الباطنية على بعض الفِرق:"إنه لزمهم لقب الباطنية لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً"[٤].

فلُقِبَ كل من سلك هذا السبيل بالباطنية لدعواهم أن لظواهر القرآن بواطن تجري في الظاهر مجرى اللب من القشر، فقالوا: إن للقرآن باطناً وظاهراً، والمراد منه باطنه دون ظاهره، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللُب إلى القشر، فالأهمية للباطن إذ هو المقصود والمراد وهو لُب الأمر، بخلاف الظاهر الذي لا قيمة له فهو كالقشر بالنسبة للُب.

فالتأويل الباطني اعتمدته الفِرق الباطنية أصلاً من أصولهم، وهو السبب الرئيس الذي أودى بهم إلى الانحراف والضلال في كثير من مسائل الاعتقاد والأحكام، وهو لقب عام تشترك فيه عدة فِرق القاسم المشترك بينها تأويل النصوص الشرعية تأويلاً يخرجها عن معناها الظاهر إلى معانٍ باطنة غير معهودة أو معروفة للمسلمين، فلا يسندها شرع ولا لغة ولا عقل، والدافع لذلك هوى الأنفس الأمارة بالسوء، وتزيين الشيطان، واتباع غير سبيل المؤمنين.

**المبحث الثالث: نشأة التأويل الباطني:**

بالبحث في نشأة التأويل الباطني ومصدره تبين أن نظرية الظاهر والباطن ترجع إلى أصول يهودية والفلسفة اليونانية؛ فالمؤلفون في تاريخ الأديان يذكرون أن أول من عُرِفَ بإخضاع النصوص للتأويل الباطني هو فيلون[٥] اليهودي الذي لازم اليونانيين

(١) زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي الشافعي الغزالي ، ولد سنة ٤٥٠هـ، له مصنفات كثيرة منها: المنقذ من الضلال، وفضائح الباطنية وغيرها، توفي سنة٥٠٥هـ، انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٩،ص٣٢٢ـ٣٤٦.

(٢)فضائح الباطنية، ص١١-١٢.

(٣) محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني، ولد سنة٤٦٧هـ وتوفي سنة٥٤٨هـ من أهل شهرستانه، له مصنفات منها:نهاية الأقدام، والملل والنحل، انظر: سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٢٨٦ـ٢٨٨.

(٤)الملل والنحل، ج١،ص١٩٢.

(٥)أول فيلسوف يهودي جمع بين الفلسفة واللاهوت، ولد سنة٢٠قبل الميلاد وتوفي سنة٥٠للميلاد وعاصر المسيح-عليه السلام-، عني بفلسفة أفلاطون، وسعى للتوفيق بين التوراة وبين الفلسفة اليونانية، انظر: موسوعة الفلسفة،ج٢،ص٢١٩ـ٢٢٨.

وأخذ عنهم الفلسفة، وقد كان للهجمات على نصوص التوراة سبباً في دفاعه عنها فلجأ إلى القول بالظاهر والباطن، وابتداع المنهج التأويلي، وذهب إلى القول بأن التأويل بالباطن هو روح النص والتفسير بالمعنى الحرفي هو جسم هذا النص(١).

فالأصل التاريخي لفكر التأويل الباطني المبني على القول بالظاهر والباطن يرجع إلى اليهود الذين قاموا بذلك دفاعاً عن كتابهم المحرف وأولهم بالسبق لذلك فيلون، وإذا تبين هذا ظهر جلياً كيف كان بدء ظهور الاعتقاد بالتأويل الباطني واعتماده أصلاً لدى الشيعة عن طريق عبدالله بن سبأ (٢)اليهودي الذي ركز اهتمامه على الزعم بوجود علم سري عند علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- اختصه به النبيﷺدون باقي الصحابة -رضي الله عنهم-، فكثير من الاعتقادات التي تقوم عليها عقائد الشيعة الإمامية وفِرق الباطنية وعلى رأسها الإسماعيلية إنما هي امتداد للسبئية اليهودية التي صبغت تلك العقائد كلها باعتقاد العلم السري لدى الإمام والذي أول من دعاء إليه ورسم طريقه ابن سبأ.

وقد انتقل هذا المرض العُضال والسُم الزُعاف إلى الأمة الإسلامية عن طريق ابن سبأ الذي زعم برجوع النبي ﷺ وعودته، وتقريره لعقيدة الرجعة بعد أن شبّه عودته بعودة عيسى –عليه السلام- للدنيا ونزوله قُرب قيام الساعة، وأن النبي ﷺ أحق بالعودة منه، قال ابن كثير(٣)-رحمه الله-:" عبدالله بن سبأ كان يهودياً فأظهر الإسلام وصار إلى مصر، فأوحى إلى طائفة من الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه مضمونه: أنه يقول للرجل: أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا؟ فيقول الرجل:

---

(١)انظر: العقائد الباطنية، ص ٢١-٢٢.

(٢) عبدالله بن سبأ رأس الطائفة السبئية التي كانت تقول بألوهية علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- كان يهودياً فأظهر الإسلام، رحل للحجاز والبصرة والكوفة، ودخل دمشق في أيام خلافة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- فأخرجه أهلها، فانصرف إلى مصر وجهر ببدعته، قال ابن عساكر عنه:" لما بويع علي قام إليه ابن سبأ فقال له: أنت خلقت الأرض وبسطت الرزق فنفاه إلى المدائن، وكان يُقال له: ابن السوداء لسواد أمه" انظر: الأعلام، ج٤،ص٨٨.

(٣) الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء البصروي الدمشقي الشافعي، ولد سنة٧٠٠ه من مصنفاته: التاريخ المسمى:" البداية والنهاية" و"تفسير القرآن العظيم" و"طبقات الشافعية"، توفي سنة٧٧٤هـ انظر: شذرات الذهب ج٨،ص٣٩٧ــــــ٤٠٠.

نعم فيقول: فرسول الله ﷺ أفضل منه فما تُنكِر أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى ابن مريم -عليه السلام-"[١].

ويقول المستشرق اليهودي جولد تسيهر[٢]:" وهكذا استطاع عبدالله بن سبأ وتلاميذه أن يورثوا الإسلام تركه فيلو اليهودي وذلك في محاولتهم تفسير القرآن تفسيراً رمزياً بعيداً كل البعد عن معناه الحقيقي"[٣].

وللتأويل الباطني في النشأة صلة بالفلسفة اليونانية، فقد ذكر ابن تيمية- رحمه الله- بعد عرضه لمزاعم الباطنية عن علم الباطن أنهم ركبوا مذهبهم من فلاسفة اليونان مع ما أظهروه من التشيع[٤]، فقد ذهبوا إلى إظهار التشيع لآل البيت وغلو في الأئمة كمذهب وسلكوا سبيل الفلاسفة اليونان واليهود في فلسفة الظاهر والباطن والاعتماد عليها كمنهج.

يقول الشهرستاني مؤكداً الصلة بين الباطنية والفلاسفة اليونان: "إن الباطنية القديمة قد خلصوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج"[٥].

فقد انتقل هذا الداء من السبأية إلى الفِرق الغالية التي تتظاهر بالتشيع وموالاة آل البيت كالإمامية والإسماعيلية وهم يسلكون هذا السبيل الضال الذي استقوه من ابن سبأ، فما من فِرقة من فِرق الغلاة إلا كان التأويل الباطني وسيلة من وسائل نشرها لمذهبها وأصلاً تعتمد عليه في فهم الشريعة واتخاذه حُجةً لتبرير باطلها والتدليل عليه واتخاذه ستاراً لتحقيق مآربها الفاسدة.

**المبحث الرابع: وسائل التأويل الباطني لدى الشيعة الإمامية :**

بالنظر في نشأة التشيع وأصوله التي اعتمدها وعلى رأسها الغلو في الإمامة واعتبارها أحد أركان الإيمان ومبانيه العظام، وجحدها كفر وضلال، والطعن في خيار الصحابة-رضي الله عنهم- وغير ذلك من صور ضلالهم عن الحق سعوا جاهدين

---

(١) البداية والنهاية، ج٧،ص١٦٧،١٦٧.

(٢) إجناس جولد تسيهر مستشرق مجري ، له مؤلفات باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية في الإسلام والفقه الإسلامي والأدب العربي تُرجم بعضها إلى اللغة العربية منها فضائح الباطنية، والعقيدة والشريعة ، توفي سنة ١٣٤٠هـ، الأعلام، ج١،ص٨٤ .

(٣) العقيدة والشريعة، ص١٥٦.

(٤) انظر: بيان تلبيس الجهمية، ج١،ص٣٧٥.

(٥) الملل والنحل، ج١،ص١٩٢.

لترسيخ هذا الضلال والاستدلال عليه بالتأويل الباطني واعتماده أصلاً من الأصول التي اتخذوها سبيلاً لتحقيق كثير من مآربهم الفاسدة، والاعتماد عليه في انحرافهم عن الحق في كثير من مسائل الاعتقاد وبناءً على ذلك اتخذوا عدداً من الوسائل والسُبل التي ساهمت في اعتماد هذا النوع من التأويل لتحقيق مآربهم ومن أبرز هذه الوسائل لدى الإمامية الإثني عشرية ما يلي:

**أولاً/ زعمهم عدم جواز العمل بظاهر القرآن الكريم، وأن الأئمة هم المختصون بتأويله:**

يعتقد الإمامية بأن الأئمة من آل بيت النبيﷺهم المختصون وحدهم بعلم الكتاب العزيز، وأنهم المصدر الوحيد في تفسير آياته، واستنباط حِكَمه وأحكامه بعد النبي ﷺ دون غيرهم من الصحابة -رضي الله عنهم- وأئمة الإسلام على مر العصور، وينسبون إلى الباقر(١)- رحمه الله- قوله: "فإنما على الناس أن يقرؤوا القرآن كما أُنزِل، فإذا احتاجوا إلى تفسيره فالاهتداء بنا وإلينا"(٢)، فتفسير كتاب الله تعالى واستنباط حِكَمه وأحكامه وبيان ما اشتمل عليه من الشرائع والعقائد والأحكام هو شغل الأئمة لا شغل الرعية، فيزعمون أن النبي ﷺ بأمر الله تعالى له خص علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- والأئمة من ذريته بتعليم ناسخ القرآن ومنسوخه، وبتعليم ما هو المراد منه.

فيعتقد الإمامية أن القرآن الكريم صامت، وأن الإمام هو الناطق عنه، وواجب الإمام الناطق تجاه القرآن الصامت كواجب النبي ﷺ له سواءً بسواء؛ فلابد من الرجوع إلى الإمام حتى يوضح مراد الله تعالى من قوله في كتابه، فلا يجوز الاستقلال في العمل بظاهر الكتاب العزيز بلا مراجعة الأخبار الواردة عن الأئمة في ذلك -كما زعموا-، يؤكد هذا المعتقد ورسوخه لديهم ما رواه الكليني(٣) بسنده: " أن القرآن لا يكون حُجة

(١) أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي العلوي، ولد سنة٥٦هـ، روى عن عدد من الصحابة -رضي الله عنهم-، وكان من فُقهاء المدينة، وقيل له الباقر؛ لأنه بقر العلم أي شقه، وهو أحد الأئمة الإثني عشر على اعتقاد الإمامية، توفي وهو ابن ٥٦ سنة ودُفن بالبقيع، انظر: شذرات الذهب، ج٢،ص٧٢ـــــــ٧٣.

(٢) تفسير فرات الكوفي، ص ٢٥٨.

(٣) عالم الإمامية، أبو جعفر محمد بن يعقوب الرازي الكليني، فقيه إمامي من أهل كُلين بالري، من مصنفاته: الكافي في علوم الدين، والرد على القرامطة، توفي ببغداد سنة٣٢٨هـ، انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٥،ص٢٨٠.

إلا بقيم، وأن علياً كان قيم القرآن وكانت طاعته مفترضة، وكان الحُجة على الناس بعد رسول الله" [١].

كما توجد هذه المقالة أيضاً في طائفة من كتبهم المعتمدة كرجال الكشي[٢] ووسائل الشيعة[٣] وغيرهما.

ومعنى هذا أن قول الإمام الناطق هو أفصح من كلام الله تعالى الصامت -كما زعموا-، ومن لوازم ذلك أن الحُجة في قول الإمام؛ لأنه الأقدر على البيان من القرآن الكريم الذي وصفوه بالصامت، وحاجته لمن ينطق عنه وهو الإمام، وينسبون إلى علي-رضي الله عنه- أنه قال: "هذا كتاب الله الصامت، وأنا كتاب الله الناطق"[٤] .

**ثانياً/ زعمهم بأن القرآن الكريم له ظهر وبطن:**

ذهب الإمامية إلى أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ له ظهر وبطن، ويتخذون من هذه الدعوى باباً ووسيلةً للتأويل الباطني الذي بنوا عليه كثيراً من اعتقاداتهم، ومن أبرزها دعوى ورود النص على الأئمة في كتاب الله تعالى، وكذلك الاعتماد عليه فيما حصل منهم من ضلال في كثير من مسائل الاعتقاد ويستدلون لهذا الزعم الضال بما نسبوه للنبي ﷺ زوراً أنه قال: "إن للقرآن ظهراً، وبطناً وحدّاً ومطلعاً"[٥]، وتناقلت كتب الإمامية هذا الأمر واستفاض لديهم حتى جاء في بحار الأنوار: "باب أن للقرآن ظهراً وبطناً"[٦]، ونسبوا لعلي -رضي الله عنه- قوله: "إن للقرآن ظهراً وبطناً، ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن "[٧].

ونسبوا إلى الباقر-رحمه الله- قوله: " إن للقرآن بطناً وللبطن بطناً، وله ظهر، وللظهر ظهراً، وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية لتكون

(١) أصول الكافي: ج١،ص١٨٨.
(٢) انظر:رجال الكشي: ص٤٢٠.
(٣) انظر: وسائل الشيعة، ج١٨،ص١٤١.
(٤) الفصول المهمة، ص٢٣٥.
(٥) تفسير الصافي، ج١،ص٣٨٨.
(٦) بحار الأنوار ، ج٨٩،ص٧٨ــــــ١٠٦، وذكر فيه قرابة (٨٤) رواية.
(٧) انظر : تفسير الصافي، ج١،ص٣١.

أولها في شيء، وآخرها في شيء، وهو كلام متصل يتصرف على وجوه" [١]، ويقصدون بذلك أن القرآن الكريم حمّال أوجه في التفسير لتبرير تأويلهم الباطني له.

وتقرر نصوص الشيعة أن لكل آية معنى باطنياً، بل قالوا بأكثر من ذلك، فقالوا: لكل آية سبعة بطون وقالوا: بأن لكل آية سبعين بطناً، واستفاضت بشأن ذلك أخبارهم، هذا إلى جانب الروايات الكثيرة الموجودة في تفاسيرهم، أمثال تفسير القمي[٢] وتفسير العياشي[٣] وغيرها التي تؤكد هذا الاعتقاد.

وبناءً على ذلك اخترع الإمامية مئات الروايات تتضمن تأويل آيات كتاب الله تعالى على غير تأويلها الصحيح ونسبوها للأئمة الإثني عشر للاستدلال بها على ضلالهم، وليس لهذا التأويل الباطني ضابط، ولا له قاعدة يعتمد عليها، بل هو قائم على الهوى وتزيين الشيطان.

**المبحث الخامس: مظاهر التأويل الباطني لدى الإمامية:**

من نظر في مظاهر التأويل الباطني لدى الإمامية وجدها تتمثل في صور شتى في اعتقاداتهم في الأصول والفروع، فقد اتخذوا التأويل الباطني مطيةً لهم في كثير من ضلالهم كالطعن في خيار الأمة بعد رسولها ﷺوهم الصحابة-رضي الله عنهم- وسبهم وتكفيرهم واستثناء من ذلك عدداً يسيراً منهم، وكذلك ضلالهم في أحكام الشريعة فأحلوا ما حرم الله تعالى، وحرموا ما أحل الله تعالى، وفسّروا كثيراً من العبادات ومسائل الاعتقاد خلافاً للمذهب الحق فيها الموافق لما جاء في الوحيين ووفق فهم السلف الصالح-رحمهم الله- ، ولكثرة مظاهر التأويل الباطني لديهم سأقتصر على ذكر أبرزها، فأبرز هذه المظاهر ما يلي:

**أولاً: تأويل نصوص الكتاب العزيز تأويلاً باطنياً لإثبات أصل الإمامة والنص عليها:**

من الأصول التي قام عليها مذهب الشيعة الإمامية الإيمان بالإمامة واعتبارها أحد أركان دين الإسلام وإحدى دعائمه العِظام، وأن إنكارها وجحُودها كُفر مُخرج من الملة[٤]، إلا أنهم وقعوا في إشكال كبير وذلك بخلو الكتاب والسنة من ذكر الأئمة

(١) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٩٢.

(٢) انظر: تفسير القمي، ج١،ص٢٨ــــ٢٩.

(٣) انظر: تفسير العياشي، ج١،ص٢٢ــــ٢٣.

(٤) انظر مثلاً: أصول الكافي، ج٢،ص١٨، وبحار الأنوار، ج٢٧،ص١٩٧.

الإثني عشر والنص عليهم حسب معتقدهم، فعمدوا إلى عدد من الآيات وأولوها تأويلاً باطنياً للدلالة على دعوى النص وفضائل أئمتهم، وتخصيصهم بخصائص تميزوا بها حتى على رسل الله تعالى -عليهم السلام- ، وادعاء النص عليهم والعصمة لهم، كل ذلك كان اعتماداً على هذا الأصل الذي وجدوا فيه النجاة والخروج من الإشكال الكبير الذي وقعوا فيه، فسخروا الكتاب والسنة لخدمة مذهبهم الضال في الإمامة باستخدام هذا التأويل الفاسد بما لا يوافق الشرع ولا اللغة ولا العقل(١).

**ثانياً : زعمهم أن جُل القرآن نزل في أئمتهم وشيعتهم وفي أعدائهم:**

من مظاهر اعتماد الإمامية على التأويل الباطني أنهم لما زعموا أن جُل القرآن الكريم نزل فيهم وفي مُحبيهم وفي أعدائهم، وأن مُعظم موضوعاته لا تتعدى هذا الأمر، سعوا جاهدين لوضع التأويلات الباطنية لآياته بما يوافق هذا المذهب، وسارعوا إلى وضع الكُتب التي تخدم هذه العقيدة.

فقد عقد الكليني باباً فيه نُكت ونُتف من التنزيل في الولاية، وذكر فيه إحدى وتسعين رواية تضمن نماذج كثيرة من هذا التأويل(٢)، وينسبون إلى علي -رضي الله عنه- قوله: "نزل القرآن أثلاثاً: ثُلث فينا وفي عدونا وثُلث سنن وأمثال، وثُلث فرائض وأحكام" (٣).

ونسبوا إلى الباقر –رحمه الله- قوله:" نزل القرآن أربعة أرباع: رُبع فينا، ورُبع في عدونا، ورُبع سنن وأمثال ورُبع فرائض وأحكام"(٤)، فيعتقدون أن القرآن الكريم لم ينزل إلا للإرشاد لولاية النبي ﷺ والأئمة من بعده وبيان فضلهم وفضل اتباعهم، وضلال مخالفيهم وأعدائهم خاصةً من الصحابة –رضي الله عنهم- وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان –رضي الله عنهم-مستدلين على ذلك باعتمادهم على التأويل الباطني لآيات الذكر الحكيم بما يخدم هذا الاعتقاد، يقول الحر العاملي(٥): " إن الأصل

---

(١) انظر: استدلالهم من الكتاب العزيز على الإمامة عن طريق هذا التأويل الفاسد مثلاً في منهاج الكرامة ص١٤٧ــــــ١٦٤، وتفسير القُمي، ج٢،ص٢٢٢ــــــــ٣٠٧، وتفسير العياشي، ج١،ص١٧٧ وغيرهم.

(٢) انظر: أصول الكافي، ج١،ص٤١٢ .

(٣) المرجع السابق، ج٢،ص٦٢٧.

(٤) المرجع السابق، ج٢، ص٦٢٨.

(٥) محمد بن الحسن بن علي العاملي، الملقب بالحر، فقيه إمامي، له تصانيف منها: الفصول المهمة في أصول الأئمة وله ديوان شعري، توفي في طوس بخراسان سنة١١٠٤هـ، الأعلام، ج٦،ص٩٠.

في تنزيل آيات القرآن وتأويلها إنما هو الإرشاد إلى ولاية النبي والأئمة – صلوات الله عليهم – وإعلامهم عز شأنهم، وذُل حال شانئهم بحيث لا خير خُبِّر به إلا وهو فيهم وفي أتباعهم وعارفيهم، ولا سوء ذكر فيه إلا وهو صادق على أعدائهم ومخالفيهم"[١].

ووضع الكاشاني[٢] في المقدمة الثانية من تفسيره عنوان "جُل القرآن إنما نزل فيهم –أي الأئمة- وفي أوليائهم وفي أعدائهم، وبيان سر ذلك"[٣]، وقال:" إنه قد وردت أخبار جمة عن أهل البيت-عليهم السلام- في تأويل كثير من آيات القرآن بهم وبأوليائهم وبأعدائهم، حتى إن جماعة من أصحابنا صنفوا كتباً في تأويل آي القرآن على هذا النحو جمعوا فيها ما ورد عنهم –عليهم السلام- في تأويل آيةً آية إما بهم أو بشيعتهم، أو بعدوهم على ترتيب القرآن"[٤].

**ثالثاً : انحرافهم عن الحق في كثير من مسائل اليوم الآخر:**

اليوم الآخر بدأً من الموت حتى دخول أهل الجنة، ودخول أهل النار وما بين ذلك وفيه من أحداث عِظام من الأمور الغيبية التي أُمِر العباد بالإيمان بها وفق ما جاء في الوحيين إذا لا مجال للاجتهاد في بيانها ومعرفة تفاصيلها إلا بذلك، إلا أن الإمامية قد استصحبوا غلوهم في أئمتهم والاعتماد على التأويل الباطني لآيات الكتاب العزيز لبيان فضلهم ومآثرهم وحقوقهم، وكان هذا هو الحال في مذهبهم في اليوم الآخر حيث استصحبوا هذين الأصليين وأعملوهما في مسائله فضلوا فيه ضلالاً مبيناً.

ومن أبرز صور ضلالهم في هذا الباب اعتماداً على أصل التأويل الباطني ادعائهم أن السؤال في القبر يشمل السؤال عن الأئمة[٥]، وزعموا رجعة النبيﷺ والأئمة للحياة الدنيا بعد الموت للانتقام من أعدائهم ومن غصبوا الخلافة بزعمهم، وعلى رأس هؤلاء المقصودون أبو بكر وعمر-رضي الله عنهما- وكذلك رجعة الشيعة للحياة ليشهدوا عز

(١) مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ، ص٨.

(٢) محمد المحسن بن مرتضى بن محمود المعروف بالفيض الكاشاني، له مصنفات منها: الوافي، وتفسير الصافي انظر: ترجمته في مقدمة تفسير الصافي، وأمل الأمل، ج٢،ص٣٠٥.

(٣) تفسير الصافي، ج١، ص٢٤.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٢٥.

(٥) انظر: عقائد الإسلام، ص٥٩، الاعتقادات،ص٩٥، بحار الأنوار، ج٢٧،ص٧٩.

دولتهم[١]، وزعموا أن من يتولى حساب الخلق يوم القيامة النبي ﷺ والأئمة واستدلوا على ذلك كله بآيات أولوها تأويلاً باطنياً فيما ذهبوا إليه من ضلال[٢].

وزعموا أن الشفاعة من النبي ﷺيوم الدين إنما هي خاصة بالشيعة دون غيرهم[٣]، واختصاص الأئمة بالشفاعة لشيعتهم وكذلك فاطمة -رضي الله عنها-[٤]، وزعموا أن الحوض المورود يوم القيامة إنما يرد عليه الشيعة دون غيرهم[٥]، وكذلك الصراط لا يمر عليه فينجوا من النار إلا من كان على مذهب الشيعة[٦]، وكذل الجنة فهي خاصة بهم دون غيرهم [٧]، وغير ذلك من صور ضلالهم في هذا الركن من أركان الإيمان بسبب اعتمادهم على التأويل الباطني لآيات الذكر الحكيم بما يوافق مذاهبهم الضالة.

فمن خلال هذا العرض وذكر بعض النصوص عن الإمامية في دعوى الباطن في كتاب الله تعالى وتأويل القرآن على هذا النحو يتبين أنهم في الحقيقة باطنية لاستخدامهم التأويل الباطني وجعله مطية لهم للوصول لمآربهم في كثير من أصول الدين وفروعه لا فرق بينهم في ذلك وبين فِرق الباطنية الأخرى، وما اعتمادهم على هذا النوع من التأويل لآيات الكتاب العظيم وادعاء أن جُله نزل في بيان فضل أئمتهم وشيعتهم وضلال مخالفيهم إلا طريقاً سلكوه لدعوة غير الشيعة وإغرائهم للدخول في هذا المذهب واعتناقه، وكذلك ترغيب اتباعهم من الشيعة الإمامية وتثبيتاً لهم للتمسك بهذا المذهب والانتساب إليه لما فيه من خير عظيم -كما يزعمون-.

**المبحث السادس: وسائل التأويل الباطني لدى الإسماعيلية:**

من أبرز الأصول التي اعتمدها الإسماعيلية لبناء مذهبهم في مسائل الاعتقاد أصل الإمامة والغلو فيها واعتبارها أحد أركان الإسلام، والانحراف عن الحق في كثير من مسائل الاعتقاد والأحكام، ولما لم يكن لهذا الانحراف دليل في كتاب الله تعالى لجأوا

(١) انظر: أوائل المقالات، ص٧٧،٩٥، الاعتقادات، ص٩٠، الإيقاظ من الهجعة، ص٥٢ــ٩٦.
(٢) انظر: أوائل المقالات، ص٧٩، الاعتقادات، ص٧٣.
(٣) انظر: عيون أخبار الرضا، ج٢،ص٢١.
(٤) انظر: بحار الأنوار، ج٨،ص٣٧،٥١.
(٥) انظر: المرجع السابق، ج٣٩،ص٢١١.
(٦) انظر: الاعتقادات، ص٩٥، وبحار الأنوار، ج٣٩،ص١٩٣.
(٧) انظر: الاعتقادات، ص٩٦، المعالم الزلفى، ص٢٤٩.

إلى التأويل الباطني بتأويل آيات الكتاب العزيز بما يُثبت أصل الإمامة والنص عليها والاستدلال على ضلالهم عن الحق، ولكي يتحقق لهم مُبتغاهم بقبول هذا النوع من التأويل اتخذوا وسائل عدة لتمرير هذا الأصل الفاسد والاستدلال به على مذاهبهم الضالة، ومن أبرز الوسائل التي اعتمدوا عليها ما يلي:

**أولاً: زعمهم بأن القرآن الكريم له ظاهر وباطن:**

اعتقد الإسماعيلية أن لكل شيء ظاهر معنى آخر خفي يُعرف بالمعنى الباطن، ومن منطلق إيمانهم بالباطن دون الظاهر قالوا: إنه لابد لكل محسوس من ظاهر وباطن، فظاهره ما تقع الحواس عليه وباطنه ما يحويه ويحيط العلم به وهو بمثابة اللُب(١)، وهذا الاعتقاد لديهم توسع ليشمل القرآن الكريم، فألفاظ القرآن في مذهبهم لها معانٍ باطنة هي المرادة خلاف الألفاظ الظاهرة، حتى إنهم نسبوا إلى رسول الله ﷺ زوراً قوله:" ما نزلت علي آية من القرآن إلا ولها ظهر وبطن"(٢)، فهم تجاه الوحي كما وصفهم الشهرستاني بقوله في سبب تسميتهم ومن سلك سبيلهم بالباطنية:" لزمهم لقب الباطنية لحكمهم أن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً"(٣).

كما قسموا المعرفة إلى ظاهر وباطن واعتبروا الإسلام ظاهراً والإيمان باطناً، وسعوا جاهدين لإثبات أهمية الباطن، وأنه المراد دون الظاهر الذي هو كالقشور لا فائدة منها، يقول جعفر بن منصور اليمن:" إن حُجة محمد وهو صاحب التأويل - صلوات الله عليه- ينفخ الروح في الأجسام ومعناه في الباطن أنه يُلقي العلم الباطن على العلم الظاهر فيثبت بذلك الدين القيم، ويكمل بإذن الله"(٤)، فمن خلال هذا النص يظهر تركيبهم الفاسد حيث ركبوا الظاهر والباطن على المخلوق واشتماله على أمرين الجسد والروح، وهذا من التلبيس الذي يسعون من خلاله لتحقيق مشروعية هذا التأويل الفاسد.

(١) أساس التأويل، ص٢٨.
(٢) المرجع السابق، ص٢٩.
(٣) الملل والنحل، ج١،ص١٩٢.
(٤) الكشف، ص٦٨.

**ثانياً/ الترغيب بالبحث والعناية بمعاني ألفاظ القرآن الكريم الباطنة والثناء على أهله، والتنفير من الوقوف على المعاني الظاهرة وذم أهله:**

لأهمية التأويل الباطني ومنزلته لدى الإسماعيلية بحثوا عن السُبل الناجعة في نشره والحث عليه والتنفير مما يُضاده، فقالوا: إن الذي يقف على ظاهر القرآن ولا يقف على تأويله الباطني مثله مثل الحمار الذي يحمل أسفاراً، وأن قوله تعالى: Z M ] \ [ L[ الجمعة:٥]، يعني ظاهرها، M^_ ` L يعني أنهم لم يعلموا باطنها فمثلهم كمثل الحمار الذي يحمل أسفاراً [١]، ثم قسموا الظاهر والباطن بين الرسول ﷺ والوصي علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، فقالوا: كانت الدعوة الظاهرة قسط النبي ﷺ، والدعوة الباطنة قسط وصية الذي فاض منه عليه جزيل الأنعام وهو علي –رضي الله عنه- [٢] ونسبوا حديثاً مكذوباً إلى رسول الله ﷺ يسند هذا الاعتقاد الضال أنه قال: "أنا صاحب التنزيل، وعلي صاحب التأويل"[٣].

قال المؤيد الشيرازي[٤]: "من اعتقد أن الباطن قواماً دون الظاهر، وللعلم قبولاً من دون العمل كان كمن أوجب للروح قواماً من دون الجسد"[٥]، فانظر كيف يُظهرون المكانة العالية والمنزلة الرفيعة لأهل العلم بالباطن وبيان فضله وأهله، وكيف يُحقرون أهل العلم بالظاهر ويذمونهم!!.

ولتعلق الإسماعيلية بهذا الأصل رموا المخالفين لهم بالجهل لتمسكهم بالظاهر وعدم عنايتهم بعلم الباطن بل وتظليلهم، وذهبوا إلى أن توحيد أهل الظاهر هو إلى الشرك أقرب[٦].

فقد كفّروا كل من لا يؤمن بالباطن، ورموه بأقبح العبارات وسيء الأوصاف كل ذلك لتنفير الناس واتباعهم خاصة من الاعتماد على ظاهر القرآن الكريم دون الاعتماد

---

(١) انظر: الافتخار، ص٧١.

(٢) انظر: الذخيرة، ص١١٣.

(٣) السيرة المؤيدية، ص١٧.

(٤) هبة الله بن موسى بن دواد الشيرازي السلماني أبو نصر المؤيد في الدين، داعي الدعاة من زعماء الإسماعيلية وكتّابها، ولد وتعلم بشيراز، لُقب بداعي الدعاة وباب الأبواب، له تصانيف عدة منها: المرشد إلى أدب الإسماعيلية والمجالس المؤيدية، والسيرة المؤيدية، توفي سنة٤٧٠هـ، انظر: الأعلام، ج٨،ص٧٥ــــــ٧٦.

(٥) المجالس المؤيدية، ص١٩٢.

(٦) انظر: تأويل دعائم الإسلام، ج١،ص٣.

على تأويلهم الباطني، فمن مقولاتهم في ذلك ما قاله جعفر بن منصور اليمن: " من عمل بالباطن والظاهر فهو منا، ومن عمل بالظاهر دون الباطن فالكلب خير منه وليس منا"[١].

ويقول القاضي النعمان[٢] مبيناً أهمية التأويل الباطني مرغباً فيه، ومنفراً مما يُضاده: "ومن أقام الظاهر وحده دون الباطن كان كمن قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنه لا خلاق له "[٣].

فلم يعتقدوا بمشروعية هذا التأويل الفاسد فحسب بل أوجبوا العمل به في تأويل كلام الله تعالى، ووضعوا المرغبات لاتخاذه منهجاً، وطريقاً يسلكونه لبيان مُراد الشارع من العقائد والأحكام في كتابه -كما زعموا- فمسخوا دين الإسلام وادعوا أنهم اتباعه الحقيقيون العالمون به، وأن من لم يعتمد على هذا الأصل للعلم به وفهمه فليس من الإسلام في شيء، ورموه بأبشع الأوصاف تنفيراً من فعله.

**المبحث السابع: مظاهر التأويل الباطني لدى الإسماعيلية الباطنية:**

من أعظم الضلال الذي فارقت به الباطنية دين الإسلام تمسكهم بالتأويل الباطني قائلين: إنه لابد لكل محسوس من ظاهر وباطن، فظاهره ما تقع الحواس عليه، وباطنه هو المراد وهو بمثابة اللُب [٤] فمذهبهم قائم على أصلين هما:

**الأول:** الغلو في الأئمة واعتبارهم مصدراً من مصادر التشريع.

**الثاني:** التأويل الباطني الذي سخّروه لخدمة مذهبهم.

وقد تجلت مظاهر التأويل الباطني لدى الإسماعيلية في عدة مسائل من أبرزها ما يلي:

**أولاً: تأويل آيات الكتاب العزيز بما يخدم مذهبهم في الغلو في الأئمة:**

وافق الإسماعيلية الإمامية بتأويل آيات القرآن الكريم بما يُسهم في ترسيخ عقيدة الغلو في الأئمة، ومن صور هذا الغلو أن جعلوا الأئمة وعلى رأسهم الوصي- علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- هم المختصون بتأويل آيات القرآن الكريم دون غيرهم

(١) الفترات والقراءات، ص ٦٦.

(٢) النعمان بن محمد بن منصور أبو حنيفة بن حيون التميمي، يُقال له القاضي النعمان، من أركان الدعوة للفاطميين، من أهل القيروان مولداً ومنشأً، له مصنفات منها: دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام، واختلاف أصول المذاهب، والمجالس والمسايرات، توفي سنة ٣٦٣هـ، انظر: الأعلام، ج٨،ص٤١.

(٣) تأويل الدعائم، ج٣، ص٢٧١.

(٤) انظر: أساس التأويل، ص٢٨.

كفعل الإمامية، فقالوا : إن رسول الله ﷺ معجزته ظاهر القرآن وتأويله معجزة لعلي -رضي الله عنه-، ثم توسعوا فيه وعمموه على أولاده فقالوا: "فجعل عز وجل ظاهر القرآن معجزة رسوله وباطنه معجزة للأئمة من أهل بيته لا يوجد إلا عندهم، ولا يستطيع أحد أن يأتي بظاهر الكتاب غير محمد صلى الله عليه وآله جدهم، ولا أن يأتي بباطنه غير الأئمة من ذريته، وهو علم متوافر بينهم مستودع فيهم، يخاطبون كل قوم منه بمقدار ما يفهمون، ويعطون كل أحد منه ما يستحقون، ويمنعون منه من يجب منعه" (١)، ثم قسموا الظاهر والباطن بين الرسول ﷺ والوصي علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- فقالوا: "كانت الدعوة الظاهرة قسط الرسول -صلوات الله عليه- والدعوة الباطنة قسط وصية الذي فاض منه عليه جزيل الأنعام"(٢).

وقد فرقوا بين الظاهر والباطن حتى قالوا: "إن الظاهر هو الشريعة، والباطن هو الحقيقة، وصاحب الشريعة هو الرسول محمد -صلوات الله عليه-، وصاحب الحقيقة هو الوصي علي بن أبي طالب"(٣).

وهكذا جعل الإسماعيلية علياً -رضي الله عنه- شريكاً للرسول ﷺ في نبوته وشريعته مدّعين زوراً أن النبي ﷺ قال:"أنا صاحب التنزيل، وعلي صاحب التأويل"(٤).

وهذه بعض الأمثلة على اعتمادهم على التأويل الباطني لخدمة مذهبهم القائم على الغلو في الأئمة وادعاء ما ليس لهم، وتسخير آيات القرآن الكريم لخدمة هذا المعتقد وترسيخه بالاعتماد على التأويل الباطني، فمن هذه الأمثلة:

تأويل آيات كتاب الله تعالى لدى منصور اليمن فقد وضع كتاباً خاصاً في التأويلات يخدم هذا الاعتقاد حيث ذكر فيه تأويل الحروف المقطعة في أوائل بعض سور القرآن الكريم بالأئمة(٥).

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص ٣١، ٣٢.

(٢) انظر: الذخيرة في الحقيقة، ص ١١٣.

(٣) انظر: الافتخار، ص٧١ .

(٤) سيرة المؤيد في الدين، ص ١٧ .

(٥) انظر :الرشد والهداية، ص ١٨٩-١٩٠.

وقال السجستاني[١] في تأويل الآيات الواردة في آخر سورة الفتح: "محمد رسول الله يعني هو الذي نال الرسالة والذين معه يعني علي بن أبي طالب الذي قارنت عينه ميمه حتى نال مرتبة المعية كما شرحنا أشداء على الكفار وهو الحسن بن علي؛ لأنه أشد من الكفار قيامه بالإمامة لما علموا أن الإمامة قد حصلت له ولأهل بيته فلذلك كنى الله عنه بالإمامة في الجماعة، رُحماء بينهم وهو الحسن بن علي ومن قبله ومن بعده من الأتماء ينالون التأييد في الستر من الأصلين بقوة الجد الموهوب لهم من خالقهم، تراهم ركعاً وهو علي بن الحسين الذي انحنى ظهره من المحنة، سُجداً وهو محمد بن علي الذي استقر عليه أمر الإمامة"[٢]، فانظر كيف أولوا آيات الكتاب الحكيم بما يوافق مذهبهم في الغلو في الأئمة، وكأن كتاب الله تعالى لم ينزل إلى للإرشاد إليهم وبيان فضلهم.

**الثاني: تأويل كثير من الشرائع والأحكام باطنياً للميل بها عن الاعتقاد الحق:**

من مظاهر الاعتماد على التأويل الباطني لدى الإسماعيلية اعتباره أصلاً في بيان الشرائع والأحكام الواردة في الكتاب والسنة، ومن صور ذلك أن العبادات العملية في دين الإسلام كالصلاة، والزكاة والصوم، والحج، والجهاد ليست كما جاء في الوحيين بيانها وهو الذي لزمه النبيﷺ وأعلمه أصحابه –رضي الله عنهم- وعملوا به ونقلوه لمن بعدهم، وإنما قُصِد بها معانٍ أخرى باطنة تخدم أصل الغلو في الأئمة لديهم وغير ذلك من ضلالهم، فقد أولوها تأويلاً باطنياً يُخرجها عن المعنى الحق المراد منها، ولبيان ذلك يُنظر مثلاً في موسوعتهم الباطنية "تأويل دعائم الإسلام" للقاضي النعمان حيث أول جميع شرائع الإسلام معتمداً على هذا التأويل الفاسد، ومن ذلك قوله عن الصلاة :" إن مثلها مثل الدعوة والمؤذن الذي ينادي للصلاة هو الداعي الذي يدعو إلى باطن الدعوة فظاهر الصلاة إتمام ركوعها وسجودها وفروضها ومسنونها، وباطنها إقامة دعوة الحق في كل عصر، وإن مثل الصلوات الخمس في عددها مثل الدعوات

(١) إسحاق بن أحمد السجزي أو السجستاني، من علماء الإسماعيلية ودعاتهم، له تصانيف منها: إثبات النبوءات، والينابيع، قُتل في تركستان سنة ٣٣١هـ، انظر: الأعلام، ج١،ص٢٩٣.

(٢) إثبات النبوءات، ص ١٩٠.

الخمس لأولي العزم من الرسل الذين صبروا على ما أُمِروا به ودعوا إليه فكل صلاة منها مثل لدعوة كل واحد من أولي العزم الخمسة، فصلاة الظهر مثل لدعوة نوح.."[١].

وفي تأويل الزكاة يقول:" إن المراد منها في الظاهر إخراج ما يجب على الأغنياء في أموالهم ودفع ذلك إلى الأئمة الذين تعبد الله عز وجل الناس بدفع ذلك إليهم، وأما في الباطن فمثلها مثل الأُسس والحُجج الذين يظهرون في الناس ويُصلِحون أحوالهم وينقلونهم في درجات الفضل بما يوجبه أعمالهم"[٢].

وفي تأويل الصيام يقول:" إنه له معنيين: المعنى الظاهر هو المتعارف عند عامة الناس الإمساك عن الطعام والشراب والجماع وما يجري مجرى ذلك، وأما المعنى الباطن للصوم فهو كتمان علم باطن الشريعة عن أهل الظاهر إن مثل أيام شهر رمضان التي أمر الله عز وجل بصومها ما يقابلها من عشرة أئمة وعشرة حُجج وعشرة أبواب وذلك في التأويل كتمان أمرهم وما يلقونه من التأويل إلى من عاملوه أن يأذنوا في ذلك لمن يرونه"[٣].

وفي تأويل الحج يقول:" إن للحج ظاهراً وباطناً، فظاهره الإتيان إلى البيت العتيق بمكة لقضاء المناسك عنده وباطنه الذي جعل الظاهر دليلاً عليه إتيان إمام الزمان من نبي وإمام؛ لأن إمام الزمان مثله في الباطن مثل البيت الحرام"[٤].

فقد تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلاً يورث تضليلاً، وأولوا في ذلك قوله تعالى: M R S T U V L ] الحجر:٩٩] بأن اليقين معرفة التأويل [٥].

وجاء في بعض مصادر الإسماعيلية وممن كتب عنهم ممن عاصرهم واختلط بهم الإفصاح بسقوط العمل بالظاهر لبعض الدعاة في مرحلة من المراحل المتقدمة بالعلم بالباطن المزعوم[٦].

---

(١) تأويل دعائم الإسلام، ج١،ص١٧٧ــــــــ١٧٩.

(٢) المرجع السابق، ج٣،ص٥٨ــــــــ٥٩.

(٣) المرجع السابق، ج٣،ص١٠٧.

(٤) المرجع السابق، ج٣،ص١٤٣ــــــــ١٤٤.

(٥) انظر: الفرق بين الفِرق، ص٢٨٠، ٢٨١.

(٦) انظر: الهفت الشريف، ص٦٥ ، وما ذكره الحمادي اليمني في فضحهم وتحللهم من الشريعة في كتابه كشف أسرار الباطنية.

**الثالث: انحرافهم عن الحق في مسائل اليوم الآخر:**

بالنظر في مذهب الإسماعيلية في الإمامة والغلو فيها والاعتماد على هذا التأويل الفاسد وتسخيره للاستدلال به على هذا المذهب الضال، واعتماده أصلاً في بيان الشرائع والأحكام، وصرفها عن المذهب الحق الذي أراده المولى جل وعلا؛ لصد الناس عن سبيله، فقد أقحم الإسماعيلية التأويل الباطني كذلك في مسائل الاعتقاد ومنها ما يتعلق باليوم الآخر، فإنهم لما كانوا منكرين للبعث والحساب والجنة والنار جاحدين كل ذلك لم يجدوا سبيلاً للخروج من الإقرار بذلك كله إلا سبيل التأويل الباطني، فصرفوا كل ما جاء في كتاب الله تعالى فيما يتعلق بهذا الركن من أركان الإيمان عن ظاهره، وادعوا أن المراد من ذلك المعنى الباطن الذي جاء تأويله وبيانه على ألسنه أئمتهم كما زعموا، فظاهر مذهبهم في هذا الركن التأويل الباطني لجميع مسائله، وباطنه الجحود والتكذيب لكل ما ورد فيه من الكتاب والسنة.

فزعموا تناسخ الأرواح بعد الموت واعتمدوا على التأويل الباطني للاستدلال به على هذا المذهب الضال(١) وأولوا القيامة بقيام إمامهم السابع الذي يفصل الله تعالى به بين الحق والباطل والمؤمن والكافر(٢)، وزعموا أن الحساب يوم الدين يوكل إلى إمامهم السابع فهو الذي يحاسب الخلق ذلك اليوم معتمدين على تأويلهم الباطني لآيات الكتاب العزيز بما يوافق هذا المذهب الضال(٣)، وفيما يتعلق بالثواب والعقاب والجنة والنار فهم في الحقيقة لا يؤمنون بوجود الجنة والنار، ويستترون بالتأويل الباطني دون إظهار هذا الإنكار، فأولوا نعيم الجنة تأويلاً معنوياً روحياً لا علاقة له بالحس، فهي عبارة عن التميز في العلم والحصول على الفوائد العقلية التي تصل من النُطقاء والدعاة، ومن نظر في هذه الأوصاف للجنة والنار في معتقدهم تبين له حقيقة مذهبهم القائم على إنكار الجنة والنار والاستتار بالتأويل الباطني لهما واستخدام المصطلحات الفلسفية لوصف الجنة وما فيها من نعيم بالترقي في درجات العلم والمعرفة والعلم

(١) انظر: الملل والنحل، ج٢،ص٥٥، والكشف، ص٨، والذخيرة، ص١٢٦ــــــ١٢٧.

(٢) انظر: الكشف، ص١٧٠، وكنز الولد، ص٣٣٣.

(٣) انظر: جلاء العقول، ص١٣٦،١٤٣، الرسالة المذهبه، ص٧٥.

بالقائم، والنار وعذابها ما يكون لمن فاته الترقي في درجات العلم وجهل القائم وغير ذلك من التأويلات التي لا يوافقها شرع ولا لغة ولاعقل(١).

**المبحث الثامن: حكم أهل السنة والجماعة على التأويل الباطني:**

للتأويل لدى أهل السنة والجماعة صفات وشروط وضوابط لا بد من توفرها في كل تأويل ليُحكم عليه بأنه تأويل صحيح، فالتأويل يوصف بأنه صحيحاً إذا كان موافقاً لهدي السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان وفق ما ورد في الكتاب والسنة، وهو الموافق للغة، قال ابن القيم-رحمه الله- في بيان التأويل الصحيح وصفاته:"وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها هو التأويل الصحيح"(٢).

فالتأويل الصحيح هو الذي يكون بمعنى التفسير والبيان موافقاً لما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وذلك حين يرد نص مجمل فيرد نصاً آخر يُفسره، وهذا النوع من التفسير اتفق السلف على قبوله، يقول ابن تيمية-رحمه الله-:" ويجوز باتفاق المسلمين أن تُفسر إحدى الآيتين بظاهر الأخرى، ويُصرف الكلام عن ظاهره؛ إذ لا محذور في ذلك عند أحد من أهل السنة، وإن سُمي تأويلاً وصرفاً عن الظاهر فذلك لدلالة القرآن عليه؛ ولموافقة السنة والسلف عليه؛ لأنه تفسير للقرآن بالقرآن، ليس تفسيراً بالرأي، والمحذور إنما هو صرف القرآن عن فحواه بغير دلالة من الله ورسوله والسابقين"(٣).

فالتأويل الموافق لما ورد في الوحيين ولغة العرب ممدوح ، وكل تأويل بخلافه فهو تحريف، وفي هذا يقول ابن القيم-رحمه الله-:" فنحن لا نُنكر التأويل، بل حقيقة العلم هو التأويل، والراسخون في العلم هم أهل التأويل ولكن أي التأويلين؟ فنحن أسعد بتأويل التفسير من غيرنا، وغيرنا أشقى بتأويل التحريف"(٤)، فليس كل تأويل مذموم، وإنما المذموم هو القول في القرآن بالرأي، فما دل عليه الدليل لا يُذم وإن كان فيه

(١)انظر: الدستور ودعوة المؤمنين للحضور، ص٦٨ــــــ٦٩، زهر بذر الحقائق، ص١٧١.

(٢) الصواعق المرسلة،ج١،ص١٨٧.

(٣) مجموع الفتاوى،ج٦،ص٢١.

(٤) الصواعق المرسلة،ج١،ص٢١٩.

صرفاً للفظ عن ظاهره ما دام أن هذا التفسير مأخوذ من نصوص الشرع نفسها، والدليل عليه صحيح.

وبالنظر في التأويل الذي اعتمد عليه الإمامية الإثني عشرية والإسماعيلية الباطنية المسمى بالتأويل الباطني وما بنوا عليه كثير من اعتقاداتهم وانحرافاتهم يتبين أنهم لم يعتمدوه أصلاً إلا لكونه سبيلاً لتحقيق مذاهبهم الضالة التي اعتقدوها، وذلك بأنهم اعتقدوا ما ليس عليها دليل من كتاب أو سنة ثم بحثوا عن مستند لهم يدعم ما قرروه من باطل، ولما لم يجدوا في الوحيين ما يعضده شرعوا في لي أعناق النصوص حتى تتفق مع ما اعتقدوه وقرروه باستخدام هذا التأويل الفاسد، قال ابن تيمية -رحمه الله- مبيناً هذا المسلك لدى المبتدعة:" والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في أريهم ولا في تفسيرهم" [(١)].

وقد اعتمدوا على هذا التأويل الفاسد لإضفاء الشرعية على أصولهم ومعتقداتهم المخالفة للوحيين يقول الذهبي[(٢)] -رحمه الله- مبيناً هذا المسلك لدى المبتدعة :" وهذه كلها عقائد رسخت في أذهانهم وتمكنت من عقولهم، فأخذوا بعد هذا ينظرون إلى القرآن من هذه العقائد، ففسروا القرآن وفقاً لأهوائهم، وفهموا نصوصه وتأولوه حسبما يزينه لهم الهوى، وهذا تفسير بالرأي مذموم، تفسير من اعتقد أولاً، ثم استدل ثانياً بعد أن اعتقد"[(٣)].

وقد تصدى علماء الإسلام بالرد والإبطال للتأويل الباطني لدى هاتين الفرقتين وغيرهما من فِرق الضلال الذين اتخذوا هذا النوع من التأويل مطيةً لهم في الوصول إلى مآربهم الخبيثة مع ضعفه ورداءته وتهافت حُججه يقول ابن حزم[(٤)] -رحمه الله-:" إن القائلين بالظاهر والباطن لا تعلق لهم بحُجة أصلاً، وليس بأيديهم إلا دعوى الإلهام والقحة والمجاهرة بالكذب..، واعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه، وجهر لا

(١) مجموع الفتاوى، ج١٣،ص٣٥٨.

(٢)الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان التركماني الذهبي، ولد سنة٦٧٣هـ، له تصانيف منها : سير أعلام النبلاء، وتهذيب التهذيب وغيرها، توفي سنة٧٤٨ه، انظر: شذرات الذهب ج٨،ص٢٦٤ــــــ ٢٦٨.

(٣) التفسير والمفسرون، ج٢،ص٢٣.

(٤) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي الأصل الأندلسي القرطبي، صاحب المصنفات منها: الفصل في الملل والنحل، توفي سنة٤٥٦هـ، انظر: شذرات الذهب، ج٥،ص٢٣٩ــــــ٢٤١.

سر تحته كله برهان لا مسامحة فيه، وكل من ادعى للديانة سراً وباطناً فهي دعاوى ومخارق، واعلموا أن رسول اللهﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها، ولا اطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنه أو عم أو ابن عم أو صاحب على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، ولا كان عنده- عليه السلام- سر ولا رمز ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه ولو كتمهم شيئاً لما بلغ كما أُمِر"(١).

ويقول ابن تيمية-رحمه الله-:" إن تأويلات الباطنية وتفسيراتها مما يُعلم بطلانها، فكل مؤمن بل كل يهودي ونصراني يعلم علماً ضرورياً أنها مخالفة لما جاءت به الرسل كموسى وعيسى ومحمد-عليهم الصلاة والسلام- فكلام هؤلاء عن الباطن ومعانيه مخالف لأصول الدين.."، ثم بعد ذلك بيّن الحكم فيمن أول الكتاب والسنة بما يخالف الحق كما هو مذهب الإمامية والإسماعيلية ومن سلك سبيلهم فقال:" أن من فسّر القرآن والحديث وتأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفترٍ على الله مُلحد في آيات الله، محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام"(٢).

وبعرض هذا النوع من التأويل على ما قرره سلف الأمة وعلمائها من ضوابط وصفات للتأويل الصحيح المقبول يظهر بجلاء خلو هذا النوع من التأويل من جميع ما جاء في صفات وضوابط التأويل الصحيح وفقاً لما قرروه استناداً لما ورد في الكتاب والسنة، وما كان بهذه الصفة فهو مردود وظاهر الفساد والبطلان لفساده وفساد أهدافه الرامية إلى التحلل من شريعة الإسلام.

فقد أخبر تعالى أنه أنزل القرآن الكريم متضمناً الهداية للبشرية أجمع، فلو لم تكن ظواهر القرآن حُجة لكانت هذه الهداية الواردة فيه عبثاً لا معنى لها، وقد وصف الله تعالى كتابه بالهداية في مواضع كثيرة من كتابه كما قال تعالى: M # $ % & ) * + L [ البقرة: ٢]، فالقرآن أنزله الله تعالى هداية للثقلين وجعل فيه من الهُدى والرشاد ما ينتفع به كل من قرأه وتدبره، ففيه من الزواجر والترهيب ما ينزجر به كُل مُهتد، ولا يُعرض عن ترغيبه وترهيبه ويدّعي كذباً وضلالاً أنه صامت يحتاج لمن ينطق عنه إلا الضالين المكذبين.

---

(١) الفصل في الملل، ج٤،ص١١٤ــــ١١٥، ٢٣٥.

(٢) مجموع الفتاوى، ج١٣، ص٢٣٦.

وقد جاء في السنة الأمر بلزوم الكتاب والسنة والتمسك بهما، ولم يوقف النبيﷺ فهم كتابه وتدبره أو الاحتجاج به على تأويل الإمام أو بيانه له، ومن ذلك قولهﷺ:(وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به)(١)، فحث على الأخذ به واتباعه ولم يشترط لذلك الصدور عن بيان الإمام وفهمه.

ومما يدل على كذبهم وضلالهم وفساد رأيهم وتناقضهم في هذه الدعوى كغيرها ما جاء في كتبهم من أحاديث يروونها عن النبيﷺ، وما ينسبونه إلى الأئمة بوصف كتاب الله تعالى بالحُجة والبُرهان، والهادي لكل خير، ولا يوصف بذلك صامت!!، فمن ذلك ما رووه عن علي بن أبي طالب-رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال واصفاً القرآن الكريم:( وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة..) (٢)، فكيف يكون القرآن الكريم كما جاء وصفه في كُتبهم بكونه ناطق ومبين، وفيه الدلالة إلى خير سبيل، وأنه الزاجر الناطق بالحق والخير والهدى وهؤلاء يدّعون أنه لا بد من الرجوع إلى الإمام الناطق لبيان القرآن الصامت؟!! لا شك أن هذا من التناقض والاضطراب لديهم، والهوى الذي أوقعهم في مثل هذا القول.

وأما زعمهم اختصاص الأئمة بتأويل القرآن دون غيرهم فإنه مما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن علم القرآن ومعانيه ليست سراً يختص به أحد دون غيره، فقد أعلم النبي ﷺصحابته-رضي الله عنهم-معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه عملاً بأمر له تعالى له في كتابه العزيز قال تعالى:M 5 6 7 8 9 : ; < = > L [ النحل: ٤٤] فقد أمره الله تعالى ببيان ذلك للناس جميعاً دون تخصيص لأحد بالبيان كما ادعى الإمامية، ودعوى أن القرآن أُختص علي-رضي الله عنه- والأئمة من ذريته بتفسيره تخالف قوله تعالى: M 5 6 7 8 9 : ; < = > L [ النحل: ٤٤]، فالبيان للناس جميعاً لا لعلي -

(١) صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة-رضي الله عنهم-، باب: من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، حديث رقم:٢٤٠٨.

(٢) جاء ذكر هذا الحديث كاملاً في تفسير العياشي، ج١،ص١٤ـــــ١٥، وتفسير الصافي، ج١،ص١٠، وبحار الأنوار ج١٩،ص٧، وهو في سنن الترمذي، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن، حديث رقم:٢٩٠٦، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، ص٣٠٣ـ٣٠٤.

رضي الله عنه- وحده، وعلى هذا فليس لمن قال بهذه المقالة إلا أن يكون متهماً للنبيﷺ بأنه لم يبلغ ما أنزل الله تعالى إليه وما أمره بتبليغه للناس، وهذا من أعظم الضلال، وإما أن يكون مُكذباً للقرآن الكريم وهذا أشد ضلالاً من سابقه بل هو الكفر المبين، فدعوى أن علم القرآن اُختص به الأئمة ينافيه ما اشتهر عن عدد كبير من صحابة النبي ﷺ تفسيرهم لكتاب الله تعالى،قال ابن تيمية -رحمه الله-:" وهذا ابن عباس نُقِلَ عنه من التفسير ما شاء الله بالأسانيد الثابتة ليس في شيء منها ذكر علي، وابن عباس يروي عن غير واحد من الصحابة يروي عن ابن عمر وأبي هريرة وعبدالرحمن بن عوف وعن زيد بن ثابت وأُبي بن كعب، وأسامة بن زيد وغير واحد من المهاجرين والأنصار، وروايته عن علي قليلة جداً، ولم يخرج أصحاب الصحيح شيئاً من حديثه عن علي وخرجوا حديثه عن عمر وعبدالرحمن بن عوف وأبي هريرة وغيرهم، وما يُعرف بأيدي المسلمين تفسير ثابت عن علي، وهذه كتب الحديث والتفسير مملؤة بالآثار عن الصحابة والتابعين، والذي منها عن علي قليل جداً، وما يُنقل من التفسير عن جعفر الصادق عامته كذب على جعفر"[(١)].

كما أن من أهدافهم التي يسعون لتحقيقهم بمثل هذه الدعاوى الضالة محاولة صد الناس عن كتاب الله تعالى والإعراض عنه قراءةً وتدبراً، إذ بهذه الدعوى لا يتحقق ذلك إلا ببيان الإمام عن آيات الكتاب المبين، فالله تعالى أمر بتدبر كتابه، والاعتبار بأمثاله، والاتعاظ بمواعظه، ومُحال أن يُقال لمن لا يفهم ما يُقال له ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة لك به من البيان والكلام[(٢)].

فالتأويل الباطني ليس قائماً حقيقة إلا على الهوى والضلال، وهو عين الإلحاد في دين الله تعالى وصاحبه متوعد بقوله تعالى: L A @ ? > = < ; : M [فصلت: ٤٠]، قال ابن عباس-رضي الله عنهما- مبيناً معنى الإلحاد:" هو أن يوضع الكلام في غير موضعه، وذلك بالانحراف في تأويله"[(٣)]، وهؤلاء الذين يلحدون في آيات الله تعالى ويحرفونها عن معانيها، وإن كتموا كفرهم وإرادتهم بالإسلام شراً وتستروا بالباطل وتخفوا خلف هذه التأويلات فإنهم لا يخفون على الله تعالى.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ، ج١،ص٨٠.

(٢) انظر: جامع البيان، ج١،ص٨٢.

(٣) جامع البيان، ج٢٤،ص١٢٣.

وقد أكد الشاطبي[١]-رحمه الله- أن الهدف من التعلق بالتأويل الباطني لدى الباطنية ومنهم الإمامية والإسماعيلية إبطال العمل بالشريعة فقال :" إنهم أرادوا باعتقادهم هذا إبطال الشريعة جملة وتفصيلاً، وإلقاء ذلك فيما بين الناس لينحل الدين في أيديهم فلم يمكنهم إلقاء ذلك صُراحاً فيرد ذلك في وجوههم، وتمتد إليهم أيدي الحكام فصرفوا أعناقهم إلى التحيل، ومن جملتها صرف الهمم من الظواهر إحالة على أن لها بواطن هي المقصودة"[٢].

فهذا الأصل الذي اعتمده الباطنية لم يكن الهدف منه بغية الوصول للحق، وإنما كان الهدف منه إسقاط الإسلام، واستئصال شأفته، وتغيير معالم الشريعة، والتحرر من تعاليمها وفرائض الدين وواجباته وتكاليفه، وما هو إلا خروج عن الدين، وانسلاخ من الملة، ولهذا جاءت أحكام كثيراً من علماء الإسلام بالحكم على الباطنية بالخروج عن الإسلام، فهم يرمون للانسلاخ من الدين الإسلامي، وقد اتخذوا هذا التأويل الفاسد مطيةً لهم، يقول الغزالي:" وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع؛ فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر قدروا على الحكم بدعوى الباطن على حسب ما يوجب الانسلاخ عن قواعد الدين، وإذا سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبقى للشرع عصام يُرجع إليه ويعول عليه"[٣].

قال ابن تيمية-رحمه الله-:" من ادعى علماً باطناً أو علماً بباطن وذلك يخالف العلم الظاهر كان مخطأ، إما ملحداً أو زنديقاً، وإما جاهلاً ضالاً..، وأما الباطن المخالف للظاهر المعلوم فمثل ما يدعيه الباطنية من الإسماعيلية" [٤]، وبهذا يتبين خطورة التأويل الباطني الذي اعتمده الإمامية والإسماعيلية في تفسير كلام الله تعالى وأنه يقتضي إسقاط الثقة والاستفادة من ألفاظه الظاهرة، إذ المراد معانٍ أخرى غير الظاهرة وهي المعاني الباطنة، والباطن لا ضابط له، ويمكن تنزيله على صور وآراء مختلفة، وبهذا يريد الباطنية إسقاط شريعة الإسلام والتحلل منها وتكييفها على أهوائهم.

---

(١) الإمام إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ، من أهل غرناطة، كان من أئمة المالكية، له مصنفات عدة، منها: الموافقات في أصول الفقه، وكتاب: المجالس وكتاب: الاعتصام وغيرها من المؤلفات، توفي سنة ٧٩٠هـ، انظر: الأعلام،ج١،ص٧٥ .

(٢) الاعتصام، ج١،ص٢٥٢.

(٣) فضائح الباطنية، ص١٢.

(٤) مجموع الفتاوى، ج١٣،ص٢٣٦.

**الخاتمة:**

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير البرية، وأزكى البشرية محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه أبرز نتائج البحث كما يلي:

١ــ وسطية أهل السنة والجماعة واعتدال مذهبهم واستقامته في جميع مسائل الاعتقاد لصدوره عن الوحيين.

٢ــ اشتراك الإمامية والإسماعيلية في أصلين من الأصول التي اعتمدوها لبناء مذاهبهم وهي:

أــ الغلو في الأشخاص، ويتمثل ذلك في صور من أبرزها الآتي:

ــ تقديم أقوال الأئمة على الكتاب والسنة.

اعتقاد حق التشريع لهم، والصدور عن أقوالهم وأفعالهم وتقريراتهم، واعتبارها حُجة مقدمةً على غيرها.

ــ إضفاء بعض الصفات والخصاص عليهم بما لم يرد عليه دليل من الوحيين كادعاء العصمة لهم وتفضيلهم عند بعضهم على الأنبياء-عليهم السلام-.

ب ــ التأويل الباطني، وقد تمثلت صور اعتمادهم على هذا الأصل في الآتي:

زعمهم أن لكتاب الله تعالى ظهر وبطن، وأن الظهر منه لا يغني عن الحق شيئاً، وأن الهداية والرشاد في الباطن أو الحقيقة منه-كما زعموا-.

تنفير العامة وتزهيدهم في الاعتماد على ظاهر الكتاب الحكيم، وهمز المتمسكين بظاهره ونبزهم بألفاظ وصفات سيئة للتنفير منهم ومن عملهم ومسلكهم.

اتخاذ هذا التأويل الفاسد سبيلاً لتحقيق مآربهم في الغلو في الإمامة، وإقحامها في كثير من مسائل الاعتقاد.

ــ انحرافهم عن الحق في كثير من مسائل الأحكام فحرموا ما أحل الله تعالى، وحرموا ما أحل جل وعلا وفق ما تهوى أنفسهم معتمدين على هذا التأويل الفاسد للوحيين.

٣ من القواسم المشتركة بين المبتدعة أن كل منهم يزعم أنه على الحق، وأن من خالفهم فهو من الضالين، وما ذاك إلا لاتباعهم أهوائهم وتزيين الشيطان لهم كما قال تعالى:M q p o n l k j i h g f e c b a ` _ ^ ] L x w v u t r [فاطر: ٨].

وفي الختام نحمد الله تعالى أن هدانا للحق وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، فنسأله تعالى أن يجعلنا من المعظمين لكتابه وسنة نبيهﷺ، ونسأله جل وعلا الثبات على الحق حتى نلقاه وهو عنا راض، وأن يهدي كل من ضل عن سبيله القويم، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

## مراجع البحث:


- الاعتصام، إبراهيم الشاطبي، تحقيق: مشهور آل سلمان، نشر مكتبة التوحيد.
- الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، ط٧، ١٩٨٦م.
- الأعتقادات، ابن بابوية القمي، دار المفيد للطباعة والنشر لبنان، ط٢، عام١٤١٤هـ.
- الأنوار النعمانية، نعمة الله الجزائري، مؤسسة الأعلمي بيروت، ط٢.
- الإيقاظ من الهجعة، الحر العاملي، المطبعة العلمية إيران.
- البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة العارف بيروت، ط٣، عام١٩٧٩م.
- التبصير في الدين، أبو المظفر الإسفرايني، تحقيق: كمال الحوت، عالم الكتب لبنان، ط١، عام ٢٠١٠م ـ
- التفسير والمفسرون، محمد الذهبي، مكتبة وهبة، ط١، عام٢٠٠٠م.
- الدستور ودعوة المؤمنين للحضور، شمس الدين الطيبي، تحقيق: عارف تامر، نشر دار الكشاف بيروت، ط١.
- الحموية، ابن تيمية، تحقيق: حمد التويجري، دار الصميعي، ط١، ١٤١٩هـ.
- السيرة المؤيدية، هبة الله الشيرازي، تحقيق: محمد حسين كامل، نشر دار التراث الفاطمي.
- الصواعق المرسلة، ابن القيم، تحقيق/ علي الدخيل الله، دار العاصمة، ط٢، عام ١٤٠٨هـ.
- العقيدة والشريعة في الإسلام، جولد تسيهر، مطابعة دار الكتاب العربي بمصر، ط٢.
- الفرق بين الفِرق، البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني بالقاهرة ١٤٠٨ه.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، تحقيق: محمد نصر و عبدالرحمن عميرة، ط١، ١٤٠٢، شركة مكتبات عكاظ.
- الفصول المهمة في أصول الأئمة، الحر العاملي، مكتبة بصيرتي قم، ط٣.
- الكشف، جعفر منصور اليمن، تحقيق: مصطفى غالب، دار الأندلس، ط١، عام١٤٠٤هـ.
- المجالس المؤيدية، هبة الله الشيرازي، تحقيق: مصطفى غالب، نشر دار التراث الفاطمي.
- المعالم الزلفى، هاشم البحراني، مؤسسة الأعلمي بيروت.
- الملل والنحل، الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى الباني١٤٠٢هـ.
- أساس التأويل، القاضي النعمان المغربي، تحقيق: عارف تامر، منشورات دار الثقافة بيروت.
- أصول الكافي، الكليني، دار الكتب الإسلامية، ط٣، عام ١٣٨٨هـ.
- أصول مذهب الشيعة الإمامية، د.ناصر القفاري، ط١، عام١٤١٤هـ.
- أوائل المقالات، المفيد، شبكة الفكر.
- بحار الأنوار، المجلسي، إحياء التراث العربي بيروت، ط٣، عام ١٤٠٣هـ.
- بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية، مجمع الملك فهد،عام ١٤٢٦هـ.

- تأويل دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، الأعلمي للمطبوعات بيروت، ط١.
- تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، مؤسسة الأعلمي بيروت.
- تفسير العياشي، محمود العياشي، المكتبة العلمية طهران.
- تفسير القمي، علي القمي، المكتبة العلمية طهران.
- تفسير فرات الكوفي، فرات الكوفي، نشر مكتبة الداوري قم.
- جامع البيان، ابن جرير الطبري، تحقيق:د. عبدالله التركي، دار هجر للطباعة.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، عام ١٤٠٢ه.
- شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار ابن كثير، ط١، عام ١٤٠٦هـ.
- صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٢٣ه.
- صحيح مسلم، دار طيبة، ط١، عام١٤٢٧هـ.
- عبدالله بن سبأ وأثر في إحداث الفتنة، سليمان العودة، دار طيبة، ط١، عام ١٤٠٥هـ.
- عيون أخبار الرضا، محمد القمي، طبع مؤسسة الأعلمي بيروت، عام ١٤٠٤هـ.
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، در الرسالة العلمية ١٤٣٤هـ.
- فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب، حسين الطبرسي، ط١، مؤسسة الأعلمي بيروت.
- فضائح الباطنية، الغزالي، تحقيق: عبدالرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية الكويت.
- كشف أسرار الباطنية، الحمادي اليماني، مطبعة الأنوار .
- كنز الولد، ابراهيم الحامدي، دار الأندلس.
- لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط١.
- مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم، طبع دار البحوث العملية والإفتاء، ١٤٠٧هـ.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق:عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، عام ١٣٩٩هـ.
- وسائل الشيعة، الحر العاملي، تحقيق: عبدالرحيم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط٥، عام١٤٠٣هـ.